تجلّيات العقيدة الدينية في رواية (غربة الياسمين) لـ: خولة حمدي –قراءة نقدية–

The manifestations of religious faith in the novel "Emigration of Jasmines" by Khaoula Hamdi - critical reading-

مصطفى بوجملين

جامعة العربي بن مهيدي –أم البواقي–

(الجزائر)

safosafio@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2021-07-05 تاريخ القبول: 2021-12-01

ملخص:

استقطب صراع الهويات العقدية الأقلام السردية العربية؛ والتي ظلّت تترصّد قوى الجذب والطرد لتلك الذهنيات المتباينة والتي ظلّت محكومة بعقيدتها المنزرعة في كيانها الاجتماعي والثقافي.

وبهذا، فإنّنا اجتبينا نموذجا روائيا متشابكا مع الأطروحة الآنفة، والمتمثّل في رواية (غربة الياسمين) لـ: (خولة حمدي)؛ إذ سعت إلى تفكيك البنيات العقدية للأنا المسلم والآخر الأوروبي، وذلك عبر طرق تيمات مركزية؛كالحجاب، والحرية والعنصرية....

وتكمن أهمية هذه الدراسة النقدية في أنّها بحث كشفي عن مكمن الأزمة العقدية داخل ايديولوجيات متضادة ومتصارعةوالتي استفزت الذات العربية وجعلتها تنحاز إلى هويتها، وتبيّن حجم الممارسات القمعية المسلّطة عليها داخليا وخارجيا وهي المسألة التي سعت إلى الإجابة عنها (خولة حمدي) عبر هذه الرواية؛ والتي أفصح عنوانها المركزي عن فجيعة الاغتراب والعزلة والهامش داخل كيان الذات المسلمة المتشبّثة بشريعتها ونصوصها المؤسسة لشخصيتها.

الكلمات المفتاحية:عقيدة؛ هوية؛ أنا؛ آخر؛ صراع

Abstract :

The theme of identity conflict has always attracted the interest of Arab narrators who watched for the action and reaction of the different mentalities that remain in the grip of a faith implanted in its social and cultural entity.

And for this we have chosen a Novel corpus entitled "Emigration of Jasmines" by Khaoula Hamdi who tried to deconstruct the structures of the religious faith of the Muslim self and the other European through the evocation of themes such as: the veil, freedom, racism. ..

The importance of this critical study lies in the fact that it is a revealing research of the location of the ten-year-old crisis within contradictory and conflicting ideologies. This provoked the creative Arab self and made it biased - at various points - in its identity, in order to show the extent of the repressive practices which influence it internally and externally; This is the question the novelist (Khawla Hamdi) sought to answer through her novel; This revealed its central title on the calamity of alienation, isolation and marginalization of the Muslim self clinging to its sharia and its founding texts for its personality.

KeyWords: Faith ; Identity ; Ego ; other ; Conflict

1. المقدمة:

حظي المشهد الروائي المعاصر بنصوص عدّة مهمة؛ تنوّعت على مستوى تيماتها، وتفاوتت جماليا في أساليب عرضها؛ والتي اعتبرت مؤشرا إيجابيا على نضج التجربة الفكرية، وسعة النظر في المستجدات الحدثية الراهنة؛ سواء أكانت عقدية، أم مجتمعية، أم ثقافيةأم سياسية... .

ولا مراء في أن يغدو الموضوع الديني نواة عمل روائي ما برمته، وهذا ما طالعتنا إيّاه الرواية الموسومة بـ(غربة الياسمين) للمبدعة التونسية (خولة حمدي)، والتي راهنت على استظهار الأزمة العقدية للذات المسلمة، والتنويه إلى مشكلة التصادم الايديولوجي بين قطبي (الأنا/الآخر).

وتهدف هذه الدراسة إلى تقويض البنيات العقدية المتصادمة داخل متن روائي مغاربي يعجّ بتيمات عدّة تتمحور أساسا حول جدلية الأنا والآخر، باعتبارهما بؤرة مركزية تنشطر عبرها الظلال الدينية والأشكال العنصرية والتجاذبات الفكرية بين ذهنيات متضادة؛ حيث راهنت (خولة حمدي) عبر هذا المنجز السردي على تعرية الواقع المحموم للأنا المسلم داخل فضاء الآخر الاستلابي والإقصائي والعدواني. ومن جهة أخرى، فإنّ هذه المقاربة الإجرائية تتطلّع إلى بيان العلائقية المتينة والمتماسكة بالعقيدة الدينية لدى الأنا المنضوية تحت مظلّتها ومدى تشبّثها بالهوية الأصلية في ضوء صراعات الهويات والثقافات المتباينة.

وبخصوص التساؤلات المحورية المتشابكة مع التيمة النقدية المتعاضدة بهذا المتن الروائي، فإنّها تتلخص في التالي:

- ما ظلال البنية العقدية في رواية (غربة الياسمين) لـ(خولة حمدي)؟
- وما أبرز التيمات الدينية التي راهنت الروائية على تفعيلها سرديا؟
- وهل نلمح كشوفا حفرية لمظاهر التصادم العقدي بين الهويات المختلفة؟
- وما الأشكال الاستلابية للأنا المندمجة في عقيدة الآخر وفكره المختلف؟

2. العقيدة الدينية: فضاء التصادم والتفاصل

شكّلت العقيدة الدينية تيمة أساسة في معمارية المتن الروائي (غربة الياسمين) لـ(خولة حمدي)؛ وتخصيصا الدين الإسلامي؛ إذ حملتفي طيّاتها مسألة صدامية وفق منحيين؛ الأول منهما يتعلق بمشكلة المعتقدات التي تماشت معها الذهنيات القديمة، والتي كانت تمارس شعائرها داخل الزوايا؛ حيث تقام الذبائح وزيارة الأولياء الصالحين والتي تعتبر توجّها شركيا واضحا وصارخا. والثاني منهما يتمثّلفي مرتكز إسلامي يخصّ اللباس الشرعي (الحجاب) والذي تكالبت حوله القوى المعارضة والمناهضة له داخل ديار الآخر الغربي (فرنسا).

ولقد ارتأت الروائية (خولة حمدي) أن تجلّي الفضاء التفاصلي والتصادمي مع العقيدة الإسلامية عبر الساردة البطلة (ياسمين)، والتي لخّصت الصراع الجدلي بين قطبي (العقيدة/المعتقد)، عبر تبيان تضادهما الفكري وتصادمهما بين أمّها المتمسّكة بعقيدة الدين الصحيح –الإسلام–؛ وجدّتها التي توارثت معتقدات دينية طقوسية، تعقد مراسيمها داخل "الزاوية"؛ إذ رأتها متنافية جذريا مع النصوص الشرعية الصريحة؛ ذاك أنّها تقبع في فضاء الشرك بالله. وهذا ما دلّ عليه المقطع السردي التالي: "كانت الزاوية بالذات تثير جدلا أزليّا بين أمّها وجدّتها، فتأخذها الثانيةفي المواسم

الدينية لتلقي السلام على الولّي الصالح، وتشترك مع الأهالي في إعداد الذبائح وطهيها، في حين تنهرها الأولى، وتختلي بها لدقائق طويلة تلقّنها مفاهيم "الشرك" الذي تتجاوز مفرداته فهمها الطفولي"[1].

كما تتكشف مرايا الصراع العقدي في ذلك الحوار الإشكالي بين الأنا (ياسمين)، والآخر (سارة)؛ إذ ارتأت الساردة أن تؤكّد مسألة التشبّث بالعقيدة الإسلامية الصحيحة لدى (الأنا)، وفي المقابل تجلية طابع العداوة والبغض لها –أي تعاليم الإسلام– عند الآخر المضاد لها؛ ونصّ ذلك الآتي: "حال عودتهم إلى البيت، أخذتها سارة لزيارة غرفتها أرتها حاسوبها الخاص، ولعب الفيديو الخاصة وملابس السهرة الخاصة بها. ثمّ جلست على طرف سريرها وهي تسألها في فضول، جاهدت حتّى تكتمه منذ رأتها:

– لماذا تغطّين شعرك؟

– إنّه الحجاب الذي يأمرنا به الإسلام.

– لكنّك لم تكوني تلبسيه من قبل.

– نعم، لأنّني لم أكن مستعدة. ليس قرارا سهلا، والظروف ليست مناسبة في تونس. لكنّني منذ سنتين حسمت أمري ولبسته.

– حسن. هذا شأن يخصّك..مع أنّ شكلك أصبح مملّا، مثل جدتي"[2].

فهنا، تضعنا الساردة مع لوحة تهكمية ساخرة أنجزتها الشخصية (سارة)؛ إذ بسطت خطابا استهجانيا احتقاريا للزيّ الإسلامي الذي طبع الشخصية المسلمة (ياسمين)؛ إذ رأت في هندامها (الحجاب) علامة فارقة بينهما؛ بالإضافة إلى تشبيهها بجدّتها العجوز الهرمة؛ وكأنّه لبوس لا يخصّ الفتاة الشابة وبالتالي، فإنّ خطابها المسكوت عنه مقتضاه أنّ جمال الفتاة ينبجس ألقا وتوهجا حين تتخلّى عن الحجاب الذي يخفي مفاتنها.

وتسترسل الروائية في كشوفها المجلّية للشكل التفاصلي مع تعاليم الدين الإسلامي؛ وذلك عبر شاهد سردي بطله والد (ياسمين)، الذي اختار الانفصال عن والدة ياسمين (فاطمة) ومردّ ذلك تشبّثها بقيم الإسلام ومبادئه المكينة وخاصة أنّها تمسّكت بحجابها وانخرطت في الجانب الدعوي للإسلام، ورفضت الاختلاط مع الأجانب الوافدين إلى بيت زوجها؛ وهذا ما أوضحه كلامه لابنته (ياسمين) والذي نصّه التالي: "حين تزوجت فاطمة كنّا منسجمين وكان يمكن أن نستمر. لكن مخاوف بشأن دراستك وتربيتك بدأت تراودها وأرادت العودة إلى تونس..حاولت إقناعها بالانتظار، لكنّ شكواها كان تتزايد. لم تعد تريد استقبال أصحابنا الذين عرفناهم منذ أيام الجامعة ساءت علاقتنا بهم؛ لأنّها امتنعت عن السهرات والزيارات..ثمّ لبست الحجاب. وفي مرحلة أخرى أصبحت تنشط في الدعوة إلى الإسلام توزّع نسخ قرآن مترجم إلى الفرنسية، وبعض الكتيبات على الأصدقاء وحتّى على المارة في الشوارع"[3].

ولم تقف الصورة التفاصلية المضادة عند هذه الشخصية الذكورية المنسلخة عن عقيدتها الإسلامية، بل نجدها أيضا راسخة في ذهنية ابنته من زوجته الأجنبية (إيلين)، والمسمّاة بـ(سارة)؛ حيث نقلت الروائية خطابها الموجّه لأختها (ياسمين)، والذي طبعه التهكم بعقيدة الإسلام وتبيانها لعجبها وغبطتها بعدم اعتناقه، وهي المسألة التي استفزّت

الأنا المسلمة (ياسمين)، ولكنّها كانت مقتنعة بفحوى رسالتها العدائية؛ لأنّها تدرك أنّ أختها الأجنبية قد نشأت في كنف أمّ ملحدة أصلا وبهذا فهي تتكلم وفق منطلقات مرجعية سابقة. وهذا ما يفهم من المقطع الحواري التالي:

"في جملة واحدة سخرت من جدّتها واستهزأت بتعاليم الإسلام دون أن يهتزّ لها جفن. كتمت ياسمين ضيقها وقالت في هدوء:

– سارة عزيزتي، هذا كلام غير مؤدب.

بينما ضحكت سارة دون أن تعتذر، تابعت ياسمين في لهجة جادّة:

– أنت لم تعودي صغيرة. في سنّك تصبح الفتاة مكلّفة في الإسلام ومسؤولة عن أفعالها.

– الحمد لله! لا علاقة لي بالإسلام!.

صعقت ياسمين وهي تسمع الكلمات التي ألقتها سارة في لا مبالاة. لم يبدو لها الأمر غريبا؟ إذا كانت الأم التي تربيها ملحدة فكيف ستنشأ"[4].

وبعد هذه المحاججة بينهما، والتي أحدثت استغرابا وانبهارا لدى (ياسمين)، حيث استعصى عنها إقناع أختها الأجنبية بالعودة الرشيدة لحمى الإسلام، وترك اللوحة الظلامية تجاه هذا الدين القيّم، فإنّنا نجد الساردة تاركة جلبة التساؤل والدهشة حول المسألة الخلافية بينهما ذاك أنّ التهمة مسلّطة والدها المتأبّين هويّته، والمندمج في فضاء هويّة أخرى؛ والذي اجترح لابنيه اسمين افرنجيين؛ وذلك قصد تناغمها اليسير مع مجتمعها الفرنسي، وهذا ما أكّدته بقولها: "أطرقت ياسمين في ألم–معها حق–لا علاقة لها بالإسلام. حتى اسمها، أليس اسما عالميا متداولا في كلّ الثقافات؟ والدها فكّر جيّدا في المستقبل حين اختار اسمي ابنيه. أراد لهما أسماء سهلة النطق بالفرنسية، ليسهل عليهما الاندماج في المجتمع حتى يذوبوا فيه، ولا يرى أحد وجه اختلافهما"[5].

ويتأجج المأزق العقدي عند شخصية (إيلين)، وذلك عبر تصريحها الفاضح بانفصالها عن كلّ معطى ديني أي بتلازمها مع الأطروحة الإلحادية الظلامية ورفضها القطعي الجازم لأيّ خطاب حواري مداره الدين؛ سواء أكانت إسلاميا، أم غيره من الشرائع السماوية الأخرى وبهذا، فإنّ درأها لكلّ نصّي عقدي وتشبّثها بمعتقد التحرّر يمثّل إشكالا معقّدا ومعظلة كبرى؛ وهذا ما أفصحت عنه (إيلين) بقولها الموجّه لابنة زوجها (ياسمين): "طوال هذه السنوات لم يحاول والدك التأثير عليّ أو إقناعي بالإسلام، وأنا أشكر له ذلك لست في حاجة إلى دين ما لأميّز الخير من الشرّ. ولا أظنّ أنّ اعتناق الإسلام أو غيره من الديانات قد يحدث أدنى تغيير في طبعي وتصرّفاتي وأنا راضيةعن أخلاقي ومعاملتي. لست في حاجة إلى أوامر ونواه تسيّر حياتي. لذلك رجاء..لا تحاولي إثارة هذا الموضوع مجدّدا"[6].

وبعيدا عن اللوحة التفاصلية مع الدين الإسلامي داخل أسرة ياسمين في فرسنا، فإنّ الروائية تنقلنا إلى حيّز مؤسسات العمل المناهضة للمظهر الإسلامي وخاصة مسألة (الحجاب)؛باعتباره تيمة مركزية في هذه الرواية، والتي أجلت عبرها السياسة العنصرية العدوانية للمرأة المسلم عند الآخر الغربي. ولعلّ العلامة السوداء –ههنا–تزداد عتمة وقتامة حينما يكون مخاطبها المستهجن لزيّها والدها، فقد كانت تنتظر منه دعما وموافقة على حرّية اختيارها؛ إذ نلفيه مثبّطا إيّاها

بقوله: "هناك نقطة واحدة قد لا تكون في صالحنا أمام اللجنة. الأمر يتعلق بغطاء الرأس اختفت الدماء من وجه ياسمين وغاضت ابتسامتها. اجتهدت حتى لا تبتلّ رموشها بعبراتها المختنقة (...) قالت بلهجة جافةوهي تسترجع ذكريات قديمة:

– آسفة لباسي ليس قابلا للنقاش.

– لا أعلم بالضبط ما هي القناعات التي تملي عليك هذا اللباس بالذات، لكن في إطار العمل من الممكن أن يطلب منك المدير الالتزام بزيّ رسمي في المكتب"[7].

وبالرغم من هاته المشادات العنيفة بين الأنا المسلمة (ياسمين) والآخر المتباين عقديا مع دينها، فإنّنا نجد الروائية (خولة حمدي) مثبّتة لخطاب حماسي يعزّز قيم الانتساب إلى الشريعة الإسلامية عبر الدفاع عن (الحجاب)الذي رأته بنية صلدة تؤسس للحياة، وألقا مؤجّجا بالنورانية الإيمانية، وذلك بعيدا عن كونه ستارا قماشيا يخفي الشعر وجانبا من الجسد؛ فنجده قائلة في هذا الصدد: "لم يكن الحجاب بالنسبة إليها وأخواتها اللواتي اخترن طريقها مجرد قطعة قماش تغطّي ما تغطّي، وقد تكشف عن مقدّمة الشعر أو الأذنين أو النحر! كان خيارا مسؤولا، قناعة ومنهاج حياة، ولم تثنها المعرقلات، بل زادتها إيمانا"[8].

وترتفع نبرة التفاصل العقدي كذلك بين شخصيات أخرى في الرواية، وتحديدا بين (الأنا/عمر) و(الآخر/كاروين) وذلك عبر خطاب الأنا الواضح والصريح لمخاطبه؛ إذ ارتأى عدم التعالق والتشابك مع شخصية مختلفة عقديا وسلوكيا عنه حيث لم يتوان في هجرانها وإقصائها من كيانه، فنجده محدّثا إيّاها بقوله: "كارولين..أظنّ أنّك لم تفهميني جيّدا. لم أرد أن أكون فضا، لكنّني مضطر إلى توضيح هذا الأمر مرّة واحدة وإلى الأبد. لست من النوع الذي تعتقدين..أو تريدين. لا أؤمن بالصداقة بين الشاب والفتاة، ولست مهتما لا بعلاقة جادّة أو عابرة ولا غير ذلك. لست مهتما"[9].

ولقد أوضحت الساردة هذا المعلم المظلم عند الآخر–أي التفسّخ العقدي والسلوكي–في سياقات نصّية عدّة من الرواية؛ ومن ذلك تبيانها لاندهاش (عمر) من الانحلال الأخلاقي في مدن فرنسا التي زارها؛ وهي مؤشر تصادمي مع هويته المحافظة، والتي تصونها عقيته الإسلامية المترسّخة في شخصيته. وهذا ما كشفه قولها: "حين وصل إلى فرنسا منذ سنوات اصطدم بالفرق الشاسع بين المجتمع المتفسّخ أخلاقيافي مدينتي "غرونوبل"التي درس فيها و"ليون" التي يعمل بها منذ سنة، والمجتمع المحافظ الذي خلّفه وراءه في مراكش المغربية. فوجئ حال خروجه للشارع أوّل مرة بما تلبسه الفتيات من خرق شفافة وملابس مسرفة في القصَر، تكشف أكثر ممّا تستر. رغم أنّ بوادر الانفلات بدأت تظهر على بنات مدينته المبهورات بالمجتمعات الغربية المتقدّمة، لكن البون ما يزال شائعا بينهن وبين القنابل البشرية التي تتجوّلفي شوارع "ليون". صدمته مشاهدة العشاق في كلّ الزوايا، يجاهرون بالفجور، (...) يترنّحون أناء الليل وأطراف النهار، كما يترنّح الكحول في زجاجاتهم"[10].

وبناء على المكاشفات التحليلية لتحدّيات العقيدة الدينية الإسلامية عبر الشواهد السردانية السابقة، فإنّنا نلفيها محلّ استهداف داخلي وخارجي معا ذاك أنّ المعتقدات الباطلة التي انساقت خلفها الذهنيات الساذجة قد شكّلت

ناقوس خطر يهدّد سلوكيات المسلم. كما أنّ الانفلات والتفاصل العلني عن الهوية العقدية الأصلية، واجتباء فضاء ديني متحرّر من الضوابط، ومتناغم مع فكر استلابي جديد قد أفرز عقليات هجينية وعدائية لا تؤمن بالتعايش مع الشخصيات المتمايزة عنها.

3. العقيدة في دائرة الحرّية المزيّفة:

الحريّة المزيّفة في ثقافة الآخر كانت تيمة أخرى أرادت من خلالها الروائية تبيانها عبر شخصية (ياسمين)؛ فنجدها – مثلا– مصوّرة المأساة الحقّة التي عايشتها في دار الغربة –فرنسا– وخاصة أنّ هذا البلد الغربي ظلّ يصدح دوما بشعار الحرّية المزيّفة والمموّهة، فنجدها ساردة واقعها العقدي المضايق من طرف الآخر الإقصائي، وذلك عبر قولها: "ظنّت أنّها لن تعرف المشكلات ذاتها في فرنسا، المعروفة بـ"بلد الحريات وحقوق الإنسان". لكن أملها خاب في بداية تجربتها. لم تكن تعلم أنّ السياسة التونسية ضدّ الحجاب استهوت الرئيس الفرنسي جاك شيراك (...) وما أن عاد إلى قصر الإيليزيه في باريس حتّى سارع بتشكيل لجنة مهمتها صياغة اقتراح لقانون جديد يمنع ارتداء كلّ العلامات التي تشير إلى الانتماء الديني"[11].

كما تبرز معالم انكسار العقيدة الإسلامية وتهويدها عبر بريق الحرية المزيّفة في بلاد الآخر الفرنسي عبر الخطاب التراجيدي الذي نقلته والدة ياسمين لابنتها؛ إذ بسطت لها مبرّرات رحيلها إلى تونس؛ وذلك مخافة على دينها وكذا رغبتها في تنشئتها نشأة سليمة، ذاك أنّ شعار الحريّة العقدية عند الآخر العنصري الحاقد ظلّ مظلّلا لكلّ المنتسبين للدين الإسلامي؛ وهذا ما يفهم من قولها: "تعلمين أنّني هربت بديني منهم..هربت بك لأحسن تربيتك.. ولم أرسلك هناك إلا بعد أن تيقّنت من متانة تكوينك وقدرتك على المقاومة..أثق فيك اليوم أكثر من ثقتي في نفسي حين كنت في مثل سنّك"[12].

ولعلّ هذا الزيف الذي وسم الحرية عند الآخر، والذي تتكشف عبره العنصرية المستغلظة على الفرد المسلم تخصيصا دون غيره، قد جعل الروائية تنقل لنا مشاهد سلوكية مشينة سلّطت على البطلة (ياسمين)؛ إذ لم يسعفها تكوينها الأكاديمي، ومستواها العلمي والثقافيفي استرضاء مكاتب الخدمة هناك، حيث ظلّت سمفونية الزيّ الإسلامي تعزف على مسامعها، وخطابات الرفض وتعليلاته الواهية تلقى عليها –سواء أكان مباشر أو ضمنيا–. وهذا التعدّي الصريح على حريّتها الشخصية في اجتباء عقيدتها الدينية قد جعلها مستشعرة عذابات الإهانة المتعرّضة لها وهذا ما عبّرته عنه الساردة بقولها: "تعوّدت أن تواجه بالرفض. أحيانا يكون رفضا مباشرا مصحوبا بإشارات صريحة إلى شكلها ولباسها، وأحيانا يكون خلف تعليلات سخيفة تدرك ما وراءها وفي أحيان أخرى يكون رفضا يحمل قناع قبول مشروط..هو رفض في نهاية الأمر؛ لأنّ الشروط التي تتعدّى على حرّيتها الشخصية هي إهانة في حدّ ذاتها"[13].

وتستمر الساردة في تبيان المضايقات المستفزة للأنا المسلمة (ياسمين) من لدن مسؤولي مكاتب العمل، ولكنّ صلادة المبدأ العقدي والتشبّث بهندامها الإسلامي قد جعلاها صامدة أمام تلك الخطابات العدوانية المزعجة؛ والتي تفنّد مزاعم الحريّة العقدية في فرنسا. ولقد استوقفتنا هذه القضية في مقطع سردي مختصر نصّه الآتي: "يمكنك أن تنزعي

غطاء رأسك..أشعة الشمس لا تصل إلى هنا. أشعة الشمس؟ هل تعتقد فعلا أنّها تغطّي رأسها للحماية من الشمس؟ أم أنّها تتعمّد استفزازها؟ (...) حاولت أن تتجاهل وقاحتها، لكن دون أن تشعر كانت حماستها للمقابلة آخذة في الفتور"[14].

وممّا سبق بيانه، فإنّنا نجد في فضاء الحرية داخل حاضنة الآخر قناعا يخفي شراسته وعدائيته للأنا المسلمة أو لنقل مكياجا منمّقا يقبع خلفه وجهه القبيح؛ والذي لا يتوانى في إقصاء غيره عبر الفعل العنصري والهمجي والدوني له. وهنا، فقد نجحت الرواية في تعرية الحقيقة الأليمة والمحمومة لهذا العالم الغربي الرافض لحرّية ممارسة العقيدة الإسلامية بأزقته ومؤسساته التعليمية وإداراته العملية، لأنّها ترى فيه نموذجا غريبا عنها، ومهدّدا لقوانين مجتمعها الفوضوي المتحرّر من سلطان الدين الحقّ.

4- معالم الهوية القاتلة:

لا مناص في أنّ الكتابات النقدية قد خصّت فضاء مهما لتيمة الهوية؛ وذلك عبر طرق مفاهيمها التعريفية ومرتكزاتها التأسيسية ومعاينة قضاياها الإشكالية؛ ذاك أنّها"القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات العامة التي تميّز حضارة هذه الامّة عن غيرها من الأمم والحضارات"[15].

ولا مشاحة في أنّ ما دعوناها (الهوية القاتلة) تمثّل القوة الغيرية المضادة للأنا والمستلبة لكيانه، والمهوّدة لقيمه الأصيلة؛ لأنّ "الإذعان للاستلاب والابتلاع لا يعني سوى تكريس الانقطاع عن القيم التأسيسية للذات: القيم التي تحمي الذات من خطر الضياع، وتضعهافي القلب من عملية الوعي بذاتها وبتجربتها وتوفّر لها الانتماء إلى الذاكرة الجماعية، وتربط بين ماضيها ومستقبلها"[16].

وتنقل لنا الروائية (خولة حمدي) أزمة الهوية القاتلة لدى شخصيتي (ريان/سارة)؛ -الذين يتقاسمان الأخوة مع (ياسمين) من جهة الأب-؛ وذلك عبر التعجب الذي استوقف الشخصية المركزية (ياسمين)؛ حينما قارنتهما بالرجل التركي المنسلخ عن هويته الأصلية؛ والمندمج مع الثقافة الألمانية؛ والذي كشفته عبر قراءتها لكتاب (الهويات القاتلة) لأمين معلوف؛ فنجدها قائلة في هذا الشأن: "لم تستطع ياسمين أن تمنع نفسها من إسقاط الفكرة على وضعية أخويها. ريان وسارة ولدا في فرنسا ونشآ فيها. لكن والدتهما فرنسية، بمعنى أنّ كفة الانتماء راجحة منذ البداية. تابعت استنتاجاتها في مرارة وهي تسترجع كلمات سارة حين حدّثتها عن الحجاب.. ليست هناك ازدواجية في الهوية لديهما فتونس لم تكن يوما بالنسبة إليهما سوى وجهة سياحية مثل غيرها. ماذا عن الأصول؟ ماذا عن التاريخ، تراث حضاري يثري الاجتماعات الثقافية والسهرات الاجتماعية"[17].

كما كشفت الروائية (خولة حمدي) قصدية مهمة سطّرتها الهويات الغيرية القاتلة؛ والمتمثّلة -تحديدا- في الدمج الكلّي للأنا المسلمة في دائرة الهوية الغربية ومثالها الأوضح والد (ياسمين)؛ حيث تنصّل من لقبه العربي (كمال عبد القادر)، واستبدله بآخر هجين (سامي كلود). وهي المسألة التي فضحت إكراهات الآخر، ونواياه الخبيثة في سحق الهوية العربية الإسلامية وجعلها في فضاء المعترك العقدي المحموم. ولعلّ بيان هذه القضية قد أكّده المقطع السرداني الحواري بين (ياسمين) وزوجة أبيها (إيلين) والذي نصّه التالي:

"ياسمين، ما اسم والدك؟

كمال عبد القادر!

– طبعا.. لكنّني لم أقصد ذلك الاسم. أعني اسمه على بطاقة الهوية الفرنسية.. الاسم الذي يحمله منذ خمسة عشر عاما.. منذ حصوله على الجنسية الفرنسية!

– لديه اسم جديد؟!

أومأت إيلين برأسها موجبة:

– نعم، سامي كلود! نحن عائلة كلود.إيلين كلود.ريان كلود.سارة كلود. كلود هو اسم عائلتي قبل الزواج، ووالدك اختار الانضمام إلينا وغيّر اسمه حين تسنّت له الفرصة"[18].

ومن جهة أخرى، فإنّنا نلفي (خولة حمدي) مبرزة دفاع الآخر عن الهوية الاستلابية القاتلة، وذلك عبر خطاب استفزازي ألقته (إيلين)على مسامع (ياسمين)؛ والذي أكّدت عبره دواعي الإدماج القسري للأنا العربي المسلم في هوية الآخر الإقصائي، وهذا ما أجابت عنه المقطّعة السردانية التالية:"قاطعت إيلين أفكارها، وهي تقول: قد يبدو لك الأمر غريبا في البداية، لكن إذا فكّرت جيّدا لوجدته قرارا صائبا..يحتاج المرء الاسم المناسب في المكان المناسب. لا أريد الإهانة، لكن اسما فرنسيا يسهل الاندماج ويساعد على شقّ الطريق..خصوصا في مجال البحث العلمي الذي يخوضه والدك"[19].

وممّا سبق، فإنّ ما طالعتنا إيّاه الهوية القاتلة من مظاهر وعلامات؛ سواء أكانت على مستوى النفي الكلّي لهوية أصلية والنظر إليها على أنّها كيان محصور ضمن فضاء جغرافي، وهذا ما أومأت إليه الساردة لات حديثها عن أخوي ياسمين (ريان/سارة)؛ والذين يعتبران موطن والدهما (تونس) مجرّد بلد سياحي يستقطب زواره الباحثين عن مناخ تنفّسي جديد، ونأيهما عن التراكمات الحضارية والثقافية والتاريخية لهذه الرقعة الإسلامية. وأمّا المستوى الآخر لهذه الهوية القاتلة فتمحور أساسا حول والد ياسمين، الذي قذفه التيار التغريبي الاستلابي إلى حيّزه، وجعله متنكرا لهويته بشتى تمفصلاتها العقدية الثقافية الايديولوجية؛ ذاك أنّه أراد الخلاص منها عبر استبدال لقبه المنتزع من ثقافته العربية الإسلامية والتعاضد مع اللقب الأجنبي (سامي كلود)، وهي المسألة التي أرادت الروائية التأكيد عليها، فهي ليست بالأمر العارض الهامش، ولكنّها مرتكز مفصلي ومهم في الهوية.

5– العقيدة الدينية والمعتقد الايديولوجي: جدل الثابت والمتحوّل

لطالما اكتسى ملفوظ الايديولوجيا التشعبّ المفهومي؛ خاصة أنّها متعاضدة مع الأفكار والقيم والأخلاق والعقيدة والمعتقدات؛ وكذلك ارتباطاتها بمجالات معرفية عدّة؛ كالتاريخ، والمجتمع، والسياسة، والفكر الديني...وغيرها. ولعلّ المسألة المهمة التي وجبّ التنويه إليها هي قضية المعتقد الايديولوجي والذي قد يقحمه الباحثون داخل العقيدة الدينية؛ ذلك أنّها منفصلان ولا يمكن –بأيّ حال من الأحوال– دمجهما واعتبارها بنية واحدة؛ لأنّ "المعتقد الايديولوجي لا يحتلّ إلا حيّزا ضيّقا في فكر وعقل معتنقه، وقد يتخلّى عنه بسهولة لأسباب تافهة، بخلاف العقيدة

الدينية فإنّها تمتلك على المؤمن قلبه وعقله وجوارحه، بحيث تصبح حياته كلّها مبنية على مقتضيات هذه العقيدة وهذا ما يجعل التخلّي عنها من الصعوبة بما كان"[20].

ولقد نوّه (حميد لحميداني) إلى الارتباط العضوي بين مبدع النّص الروائي والمعطى الايديولوجي؛ ذاك أنّ البنية الايديولوجية –وفق منظوره– مجرّد ترصيع جمالي يولّد التصوّر الشمولي لموقف المبدع؛ إذ يقول: "الرواية كاديولوجيا تعني موقف الكاتب بالتحديد، وليس موقف الأبطال كلّ منهم على حدة (...) الاديولوجيات داخل الرواية لا تلعب إلا دورا تشخيصيا ذا طبيعة جمالية من أجل توليد تصوّر شمولي وكلّي هو تصوّر الكاتب"[21].

أمّا (ميخائيل باختين MikhailBakhtine) فإنّه يرى في مسألة الايديولوجيا حدثا تتشابك حوله الصراعات بين بنيات مختلفة؛ إذ لا يمكن النظر إلى وعي الذات البطلة إلا باقترانها بذوات أخرى تحمل ايديولوجيات متباينة أو متضادة معها، وهنا تتكشف عوالم عدّة تحتدم بعالم البطل المحوري داخل الفضاءات النصّية للعمل الإبداعيوهذا ما عبّر عنه بقوله: "إنّ وعي الذات عند البطل، وهو يلفّ مجموع عالم الأشياء لا يمكن أن يوضع إلا بجوار وعي آخر، كما أنّ حقل رؤيته لا يمكن أن يرتّب إلا بجوار حقل آخر للرؤية، واديولوجيته لا تصنّف إلا بجوار إديولوجية أخرى. وهكذا فلا يمكن للكاتب أن يفعل شيئا آخر بالنسبة لوعي البطل الذي يجعل جميع الأشياء موضوعا لتأمّله سوى أن يعارضه بعالم موضوعي، وهو عالم أنماط الوعي الأخرى"[22].

ولا مراء في أنّ معاينة فصول رواية (غربة الياسمين) يجعلنا نقف أمام صراع ايديولوجيتين؛ الأولى منهما متمسّكة بهويتها الإسلامية، والأخرى متحوّلة عنها ومنغمسة في فضاء الايديولوجية المضادة للعقيدة الإسلامية؛ إذ مثّلت شخصيتا (ياسمين/عمر) الشخصيتين المسلمتين الثابتتين على عقيدتهما، والمنافحتين عنها في بلاد الآخر (فرنسا) بينما نجد (والد ياسمين) شخصية متحوّلة ومتفاصلة عن الهوية الأصلية. وبالتالي، فإنّ ثنائية (الثبات/التحوّل) محور مهم أرادت الروائية تسليط الضياء عنه؛ وخاصة أنّه محك للانتماء أو الإقصاء.

فأمّا بخصوص الشواهد السردية المجلّية لقيم الثبات والصمود عند الأنا المسلمة في بلاد الآخر العدائي فهي عديدة وخاصة التي تعلّقت بالشخصية المحورية (ياسمين)؛ ذاك أنّها ذات مؤمنة بعقيدتها التي تمسّكت بها. وبالرغم من شدّة المضايقات والاستفزازات التي حدثت معها في البلاد الفرنسية فإنّها أوصدت منافذ الانفلات عنها؛ بل إنّها كرّست حياتها للدفاع عنها، وتمثيلا لذلك حوارها مع زميلتها في العمل (روزلين)؛ والتي ظلّت متهكمة من مظهرها الإسلامي والذي رأته ضربا من الجنون؛ لأنّها تعتبره سجنا يكبح حرّية تصرفات المرأة، ولكن الرؤية الحقّة لدى (ياسمين) تظلّ سماوية تجاه خالقها الذي أوجد هذا الدين، ورأت فيه طاقة تمضي بها قدما، وهذا ما أفصح عنه الشاهد السردي التالي: "أنا أناضل من أجل حرّيتي في اختيار لباسي. لأنّني أؤمن بالله الذي أمرني بالحجابحين تضيق بي الدنيا وتشتدّ عليّ الضغوطات، ألجأ إلى الله فأبثّ إليه حزني وأستمدّ من ديني الطاقة التي تدفعني إلى الأمام. في المقابل أنت تناضلين من أجل الحريّة المطلقة والنقيّة من كل قيود، سنسمّيها "عقيدة الحريّة" وحين وجدت نفسك في ظروف قاسية لماذا لم تعودي إلى تلك المبادئ التي تعيشين من أجلها لتستمدي منها

الشجاعةعلى مواصلة الطريق؟ لماذا اخترت الانتهاء من الحياة مع أنّه قرار لا رجعة فيه ولا يترك المجال لفرصة جديدة؟ أليست لديك ثقة كافية في معتقدك"[23].

وفي سياق نصّي آخر، تنقل لنا الروائية الثبات العقدي لدى (ياسمين)، وذلك حينما أبرزت الخطاب التهكمي الذي أنجزته الشخصية القريبة رحميا منها والمغترب عقيدة ومعتقدا عنها والممثّلة في والدها (سامي كلود)؛ إذ ظلّ منافحا على قيم الآخر المتحرّر أخلاقيا وسلوكيا واعتباره (الحجاب) مغلاقا لفرص العمل بالإدارات الفرنسية وخاصة أنّه اندمج مع هذا المجتمع التغريبي، وتخلّى عن اسمه الأصلي. وبالرغم من هذا الإكراه فقد ظلّت أفكاره ومراميها معلومة مدركة عند ابنته، والتي لم تنجز خلف نصيحته الاستلابية؛ لأنّها تعي منهج حياتها المحتكم إلى عقيدتها الإسلامية القويمة، ولا يمكنها التنازل قيد أنملة عن هوّيتها، وهذا ما أبانت عنه الساردة بقولها: "للمرّة الأولى يتحدّث معها بشأن حجابها. لم يكن له يوما دخل بشيء يخصّها. اكتفى بدور المتفرّج. وكانت تغلي من الداخل مذ عرفت أنّه غيّر اسمه من أجل النجاح المهني. لذلك لم تكن لتقبل منه أدنى نصيحة تعلم تماما في أيّ اتجاه تصبّ أفكاره"[24].

كما تكشف الروائية عند فضاء ايديولوجي آخر سمته الثبات والذي شغلته شخصية محورية أخرى في هذا النصّ الروائي والممثّلة في الرجل المغربي (عمر) –الذي كان مهتما بالأبحاث الكيميائية في مختبره–؛ فقد صوّرت حيّز الهامش الذي استكان إليه في ضفة الآخر الغربي "فرنسا"؛ لأنّه ظلّ متشبّثا بعقيدته المضطهدة والمستهدفة قصدا وهذا ما نقرؤه جليا في المقطع السرداني التالي: "وضع سماعاته في أذنيه وشغّل جهاز التسجيل. انطلق صوت ترتيل العفاسي في انسياب ليملأ أذنيه ورأسه. يمكنه الآن أن يغمض عينيه وينفرد في عالمه مع ورده اليوميمن القرآن الكريم. قبل أن يحكم إغلاق أسوار عزلته"[25].

وفيما يتعلق بالشواهد السردية المخصوصة للمعلم التحوّلي والتفاصلي عن الهوية الأصلية ودينها العقدي لدى والد ياسمين (كمال عبد القادر) فإنّها هي الأخرى عديدة؛ ولعلّ أولاها انفصاله عن والدة ياسمين (فاطمة)، إذ رأى في التزامها الإسلامي عائقا لحياته في فرنسا، ممّا جعله يختار الزواج من امرأة فرنسية ملحدة ومتحرّرة من أي ضابط عقدي، وهذا ما أفصحه كلامه لابنته، فنجده مصارحا إيّاها بحسرة بقوله: "أنا وفاطمة كان يمكن أن نتّفق.. بل كنّا متّفقين كثيرا، قبل أن تتغيّر هي. كانت بيننا مشاعر حقيقية.. وكان يمكنني أن أتعايش مع التغيير الذي طرأ عليها.. لكن هي أرادت أن تغيّرني معها، وذلك لم أقبله. علاقتي بفاطمة لم تصمد طويلا.. لكنّ زواجي من إيلين كان خطأ منذ البداية .. ربّما أكون قد تسرّعت في إنهاء زواجي الأوّل، لذلك لم أتحمّل إعلان فشل زواجي الثاني"[26].

وأمّا المؤشر العلامي الثاني لهذا التحوّل فيتعلّق بتخليّه عن اسمه العربي واستبداله بلقب أعجمي؛ أي طيّ اسمه القديم (كمال عبد القادر) وإعلان ميلاد اسمه الجديد (سامي كلود)، والذي أحدث استنفارا لدى (ياسمين)؛ لأنّ معرفتها المتأخرة به قد جعلتها مصدومة ومفجوعة وتأكّدت في قرارات نفسها أنّ والدها أعلن انسلاخه وخرقه الصارخ لهويته، والاندماج مع ايديولوجيات متنافية معها.

وفي ضوء هذه القراءة النقدية التحليلية لجملة الشواهد السردية المخصوصة لهذه التيمة البحثية، فإنّنا نلفي مسألتي (الثبات/الصمود) لدى الأنا المسلمة (ياسمين) بنية مركزية أرادتها الروائية (خولة حمدي) في نصّها، وخاصة

أنّ الإسلام عقيدة دينية، ومشروع نهضوي بنائي للأمم، وهو بحاجة مسيسة لذهنيات متّقدة تنافح عنه داخل المعتركات العقدية الشائكة في البلاد الغربية، وتملك في ذاتها الشخصية الصلدة القويّة، وهذا ما اتّضح في سلوكيات البطلة (ياسمين)؛ فهي لم تركن لخطاب والدها، ورأت فيه كلاما عابرا لا يخالج ذاتها؛ لأنّها تدرك صدق ارتباطها بهويتها العقدية والثقافية. وأمّا المؤشر الآخر لهذا الثبات فلم يكن بالمستوى الذي وصلته الشخصية البطلة، ولكنّه تحقّق عبر العزلة عن كلّ المؤثرات الدخيلة والغريبة داخل كيان الآخر، وهذا ما أوضحته الساردة عبر تبيان سلوك الأنا المسلم (عمر). وفيما يتعلّق باللوحة التفاصلية المتحوّلة عن هوّيتها فقد مثّلها والد ياسمين (كمال عبد القادر) الذي فضّل المكوث في بلد أجنبي والاندماج في ثقافته وهوّيته الانفصال عن زوجته (فاطمة)؛ لأنّها –في منظوره– تحمل عقيدة لا تتناسب مع تطلّعاته الحداثية الجديدة وأضحى التنائي بينهما مطلبا أساسا وجب تحقيقه.

6– الأنا المضاد: العنف القهري والخرق العقدي

لعلّ الكشف النقدي عن ما أسميناه بـ(الأنا المضاد) داخل رواية (غربة الياسمين) يؤكّد أهمية النظر والتحرّي عنه لأنّه يشكلّ مأزقا حقا ينخر جسد الهوية، ويهوّد مرتكزاتها العقدية المكوّنة لها؛ ولأنّه يقوّي عدوان الآخر الغربي على الأنا المسلمة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ صورة الأنا المضاد في هذه الروايةقد تجلّت عبر مظهرين، الأول منهما يتعلّق بالممارسات القمعية التي سلّطتعلى المحجّبات والمتديّنات في تونس، والثاني منهما يخصّ انسلاخ الأنا عن هويته العقدية واندماجه في هوية مغايرة عدائية، والذي مثّلها أساسا والد البطلة ياسمين –سامي كلود–؛ حيث سعت الروائية إلى فضح الصورة السوداء لدى الأنا السلطة والمتسلطة في بلادها تونس، والتي تكالبت على كلّ أنثى مسلمة اختارت اللباس الإسلامي (الحجاب)؛ والذي نعتته بـ"اللباس الطائفي"؛ وكأنّه معول هدم لكيان الأمة، وعصا مفرّقة للحمتها وتماسكها. ولعلّ المعلم الآخر للخرق الديني هو الإعلاء من سلطة المعتقد البشري –العادات والتقاليد– وتصييره إلى قانون أعلى يحكم سلوكات الرعية، ويؤسس لنظم حياتهم بعيدا عن القانون الشرعي الإلاهي كما أبانت (خولة حمدي) عبر البطلة الرئيسية (ياسمين) حجم الاضطهاد الجسدي الذي رافق الحملة الشرسة على المحجّبات في بلادها وكأنّها أرادت نقل خطاب تهكمي مسكوت عنه فحواه أنّه لا لوم على الغرب إذا عنّف المسلم في بلاده ما دامت المسلمة المحجّبة مفجوعة ومكلومة داخل كيان الأنا المنتمية إليه. وهذا ما نقرؤه جليّا في قولها: "كلّ شيء بدأ في عهد الرئيس السابق الحبيب بورقيبة، حين صدر المنشور 108 سيئ الذكر سنة 1981، والذي وصف فيه الحجاب بـ"اللباس الطائفي" غير المتناسب مع عادات البلاد وتراثها. توالت منذ ذلك الحين حملات التنكيل بالمحجبات، فتشتدّ عليهن القبضة الأمنية حينا وترتخي حينا آخر، لتعاود الضغط مرة أخرى كلّما جدّ جديد في الساحة السياسية"[27].

وتستمر السادرة في نقل هذه العدوانية الداخلية على الفتيات المحجّبات، والتي وصفتها "بالرياضة الوطنية" وكأنّها تصوّرها باعتبارها لعبة ماتعة لاهية لممارسيها؛ وخاصة أنّها لم تكن على نطاق مؤسساتي محدّد؛ بل كانت على المستويين العام والخاص، وهو مؤشر خطير على غربة الدين الإسلامي في بلد ينتسب إلى رقعة الإسلام، وتبنى في

حواضره المساجد؛ حيث نراها قائلة: "كانت تحسّ بمرارة مألوفة. مرارة عرفتها كثيرا في تونس طيلة السنتين الماضيتين، منذ اتّخذت قرارها بارتداء الحجاب. التضييق على المحجّبات كان وما يزال رياضة وطنية يمارسها رجال الشرطة بكثير من المتعة في الشوارع والمؤسسات العامة والتعليمية، ويطبّقها أصحاب المؤسسات الخاصة عن خوف أو تخاذل أو شماتة"[28].

أمّا الوجه الآخر للأنا في هذه الرواية، فإنّه يتمثّل في الأنا المستلب عن عقيدته وهويّته، والذي يمثّله والد ياسمين (كمال عبد القادر)، فعلى الرغم من سلوكه غير المعنّف تجاه ابنته المسلمة، ولكنّ عداؤه لمظهر لباسها الإسلامي المحتشم وانسلاخه عن تعاليمه المؤسسة له قد شكّل مسارا مضادا لمنهج عقيدتها وهذا مؤشر خطير على الواقع الاستلابي الذي اجتاح كيانه الفكري والسلوكي معا؛ وخاصة أنّ هجرانه لوالدة ياسمين كان مؤسسا على المعطى السابق؛ أي تفاصله مع أناه العربية المسلمة، واندماجه مع أنا جديدة مختلفة ومتضاده معها، وهي القضية التي استوعبتها (ياسمين) من كلام والده الغريب عنها والذي أبانه الحوار التالي:"لن أطلب منك التخلّي عنه أو أنصحك بذلك حتّى.. أعلم أنّك عنيدة مثلما كانت والدتك حين كانت في سنّك. التفتت إليه في انتباه. للمرأة الأولى يأتي على ذكر الخلاف الذي كان بينه وبين والدتها في السنوات الخوالي"[29].

وبناء على هذهالتقويضات النقدية للاقتباسات السردية المتعلقة بالأنا المضاد في هذه الرواية، فإنّنا نخلص إلى شمولية النظر عند الروائية في إجلاء الصورة السوداوية التي رسمتها لهذا النوع من الأنا؛ والذي تمظهر عبر شكلين فردي وجماعي؛ فأمّا الأوّل فقد تمثّل في والد ياسمين، والذي لم يتقبّل حرّية اجتباء زيّها الإسلامي (الحجاب)وبالتالي تضاده مع العقيدة الإسلامية؛ وخاصة أنّها كانت المعيقة أمام استمرارية حياته مع والدتها (فاطمة). وأمّا الثاني فإنّه متعلّق بالسلطة التونسية، والتي أكرهت المحجّبات قسرا وجبرا على نزع زيّهما الإسلامي، وذلك عبر الممارسات القمعية العنيفة تجاههم؛ وهي فجيعة مأساوية تنخر كيان الهوية العربية الإسلامية من الداخل.

7. الخاتمة:

في ختام هذا التقصّي النقدي التحليلي عن البنى التيمية للعقيدة الدينية في المتن الروائي (غربة الياسمين) للروائية (خولة حمدي)، والذي ارتأينا من خلاله تقويض السجالات العقدية والفكرية بين الأنا والآخر، واستظهار عمق الطرح السردي والنقدي لهذه القضايا المحمومة، فإنّنا نخلص إلى نتائج علمية ندرجها وفق التالي:

– العقيدة الدينية تيمة متوتّرة في الخطاب الروائي المعاصر؛ إذ تجاذبتها الأقلام بالطرح والكشف؛ وخاصة على المستوى الخلافي بين ثنائية (الأنا/الآخر).

– انحياز الروائية (خولة حمدي) لعقيدة البطلة (ياسمين) والدفاع عن سلوكياتها الدينية المسلمة يمثّل جانبا مهما لمرجعية المبدع وايديولوجيته والذي يترك لشخصياته السردية فضاءات نصّية للدفاع عن اختياراتهم العقدية، والمنافحة عن قيمهم التاريخية والثقافية. كما يسعى عبرها إلى نقل اللوحات الظلامية التي تسود المشهد الغربي المعاصر والذي يسعى جاهدا إلى كبت الصوت المضاد، ومحاولة استيلاب الذهنيات الغيرية من هويتها.

– ناقشت الروائية (خولة حمدي) قضية الهوية العقدية داخل فضاء الآخر، وجلّت الممارسات العدائية القمعية تجاهها؛ وتخصيصا الممانعة المطلقة للزيّ الإسلامي (الحجاب)، باعتباره مظهرا عقديّا مضاد للثقافة الغربية وفكرها الحداثي.

– شكّلت الحرّية بنية أساسة في رواية (غربة الياسمين)؛ حيث راهنت الروائية على تسويد صورتها لدى (الأنا) لأنّها تظلّ شعارا مزيّفا حملته العقلية الغربية الإقصائية؛ فلم يكن للأنا المسلم حيّز من الحرّية العقديّة في بلد الآخر إذ واجهته المضايقات والاستفزازات والتهكّمات والتعنيفات، وأحسّ بهامشيته وعزلته فيه.

– الاندماج الكلّي في هوية غيرية، والانسلاخ عن الثقافة الأصلية قضيّتان بارزتان في هذا النصّ الروائي وهذا ما طالعتنا إيّاه خطابات الشخصية الفرعية (كمال عبد القادر)؛ والذي تنكّر لموروثه الثقافي الإسلامي وذلك عبر اجتراح لقب جديد مستلّ من ثقافة الآخر (كلود)، ومعاداته الصريحة الفاضحة لعقيدة ابنته؛ فلطالما استنكر عليها ارتداء الحجاب، وأبان لها قطيعته مع والدتها (فاطمة)، وذلك لأنّه لا يبغي السلوك التديّني الإسلامي وفضّل البلد الغربي المنفتح (فرنسا) على بلده العربي الإسلامي (تونس).

– النضال من أجل العقيدة الدينية رسالة أخرى بثّتها الروائية في نصّها، فلم تكن البطلة (ياسمين) مجرّد فتاة تنعم بشبابها في بلد الآخر، بل ذاتا مؤمنة عاشقة لدينها الإسلامي، ومحبّذة لتطبيق شريعته، وذلك بالرغم التحدّيات العويصة والشائكة التي ألفتها لدى أقرب الناس إليها رحما، وكذا المجتمع الفرنسي المتحرّر عقديّا وسلوكيا.

– الانقسام داخل الأنا ذاته؛ وإفرازه لما أسميناه (الأنا المضاد) شكّل أيضا تيمة مهمة في رواية (غربة الياسمين) فهو يمثّل ضغطا وتحدّيا على الأنا المسلمة والتي استهدفت من طرف جبهتين هما: (الأنا المضاد/الآخر) إذ لا يمكنها أن تستجير من الرمضاء بالنّار، فكلاهما مكمن الإقصاء والتغريب.

وبعد عرضنا لجملة النتائج المستخلصة من هذه الدراسة النقدية، فإنّنا سعينا إلى بسط بعض المقترحات والتوصيات والتي رأيناها متعالقة مع القضية البحثية المطروقة آنفا، والتي مقتضاها التنويهات التالية:

– التكوثر النقدي الشامل حول الأعمال السردانية المتضمّنة لموضوعات الهوية الإسلامية، وذلك بهدف ترسيم الصورة المكتملة عن تحدّياتها الحداثية سواء أتعلق الأمر بشأنها الداخلي أم الخارجي؛ وخاصة أنّ صدمة العلمانية أضحت مهدّدا خطيرا على المجتمع الإسلامي المعاصر.

– الحثّ على توجّه الكتابات السردانية صوب التيمات المعزّزة لقيم الهوية العقديّة عند المتلقّي المسلم، وبيان المكانة السامقة لمرجعياته الثقافية والتاريخية والمجتمعية.

– تحفيز الأقلام الروائية الشابّة وتشجيعها على الكتابة في الشأن الهوياتي، وذلك خدمة لعقيدتها وموروثاتها المتراكمة في الحقب القديمة وخاصة أن الآخر الغربي يسعى بشكل دؤوب ومتواصل لغزو الذهنية العربية والمسلمة وتشتيتها وطمس معالم هويتها.

– التصدّي روائيا لمواضيع العلمانية والاستلاب الحضاري والعنصرية الهمجية لدى الآخر، وبيان مزالق الانقياد خلف اتجاهاته التغريبية الإقصائية.

قائمة المصادر والمراجع:

- العاني،خ،ن،(2009) ،الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية (ط1)،بغداد ،العراق :مركز البحوث والدراسات الإسلامية.

- الفاتحي،ف،(6 ماي 2013)،مابين حرّية "العقيدة الدينيةوحرّية المعتقد الايديولوجي Consulté le sur https://www.hespress.com. 10مارس 2021

- حمدي،خ، (2015) غربة الياسمين، (ط1)الهرم ،مصر: كيان للنشر والتوزيع .

- لحميداني،ح،(1990)،النقد الروائي والاديولوجيا: من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النصّ الروائي (ط1)الدار البيضاء المغرب : المركز الثقافي العربي .

- منير،و،(2010) ،التنمية وأزمة الثقافة :بين ظاهرة الاستلاب وفاعلية التغيير،مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، 6.(22)

الهوامش:

[1] حمدي، خ، (2015) غربة الياسمين، (ط1)، الهرم ، مصر: كيان للنشر والتوزيع، ص11.

[2] المصدر نفسه، ص12.

[3] المصدر نفسه، ص37-38.

[4] المصدر نفسه، ص13.

[5] المصدر نفسه، ص13.

[6] المصدر نفسه، ص18.

[7] المصدر نفسه، ص16.

[8] المصدر نفسه، ص16.

[9] المصدر نفسه، ص48.

[10] المصدر نفسه، ص27.

[11] المصدر نفسه، ص17.

[12] المصدر نفسه، ص17.

[13] المصدر نفسه، ص32.

[14] المصدر نفسه، ص45.

[15] العاني،خ،ن،(2009) ،الهوية الإسلامية في زمن العولمة الثقافية (ط1)،بغداد ،العراق :مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ص44-45.

[16] منير،و،(2010) ،التنمية وأزمة الثقافة :بين ظاهرة الاستلاب وفاعلية التغيير،مجلة ثقافتنا للدراسات والبحوث، 6(22) ، ص139-140.

[17] حمدي، خ، (2015)، ص14.

[18] المصدر نفسه، ص35.

[19] المصدر نفسه، ص35.

[20]الفاتحي،ف،(6 ماي 2013)،مابين حرّية "العقيدة الدينيةوحرّية المعتقد الايديولوجي Consulté le sur https://www.hespress.com 10مارس 2021

[21]لحميداني،ح،(1990)،النقد الروائي والاديولوجيا: من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النصّ الروائي، (ط1)الدار البيضاء المغرب : المركز الثقافي العربي، ص35.

[22]المرجع نفسه، ص51.

[23]حمدي، خ، (2015)، ص145-146.

[24]المصدر نفسه، ص37.

[25]المصدر نفسه، ص30.

[26]المصدر نفسه، ص38.

[27]المصدر نفسه، ص16.

[28]المصدر نفسه، ص16.

[29]المصدر نفسه، ص43.